الظلام وتجلياته في شعر الشريف الرضي في مديح والده نموذجاً

أ.م.د. مريم عبدالنبي عبدالمجيد

مركز دراسات البصرة والخليج العربي / جامعة البصرة

Email : Mariam.alnajjar%uobasrah.edu.iq@gtmpaccount.com

الملخص

استخدم الشريف الرضي مفردات الظلام وتجلياته في ديوانه بصورة واسعة، وكانت أكثر بروزاً في غرض المديح، وقد كشف البحث اتجاهاتها، ومظاهرها، وأبعادها الفكرية والعاطفية في مديح والده، حيث استخدمها للتعبير عن بطولته حصرا، وهذه إشارة من الشاعر يبين فيها ما يتوصف به والده بالتلاحم مع الظلام ومايستثيره من أهوال للإحالة على تفرده، واختلافه، وتميزه، سواء أكان الظلام حقيقة أم مجازاً، للتعبير عن شخصية مميزة يتبنّى بالتعريف بها ما يلائم سيرته في الأحداث التي مرّ بها، وتوصيف سماته القيمية الأخلاقية، والمادية، التي عرف بها، والتي يسمو من يتحلى بها في منظومة الأنساق الثقافية عند العرب.

الكلمات المفتاحية: شعر الشريف الرضي، والد الشريف الرضي، الظلام، المديح، البطولة.

Darkness and its Manifestations in the Poetry of AL-Sharif Al-Radhi *In* Praise of His Father as a Model Objective Study

Assist Prof.Dr.Meriam Abdulnabi Abdulmejid

Basrah & Arabian Gulf Studies Centre / University of Basrah

Email :Mariam.alnajjar%uobasrah.edu.iq@gtmpaccount.com

Abstract

Al-Sharif Al-Radhi used extensively the vocabulary of darkness and its manifestations in his diwan. He was more prominent in praise. This research revealed the poet's praise to his father through: its trends, manifestations, intellectual and emotional dimensions. Notably, the previous factors were exclusively used by the poet to express his Heroism. This is a reference from him to explain the merits of his father. Also, he explores his father's union with darkness and horrors to refer to latter's uniqueness, difference, and distinction, whether the darkness is real or metaphor. Thus, a distinguished personality would be expressed to cope with his biography in the events he went through. Moreover, his father was known for his moral and material value traits that should be approached in order to be recognized among the Arabs in the system of cultural patterns.

Keywords: Poetry of AL-Sharif Al-Radhi Father of Al-Sharif Al-Radi, Darkness, Praise, Heroism.

المقدمة

اتفقت جميع مصادر ترجمة الشريف الرضي على وصفه بالهيبة، والنُبل، والمكانة الاجتماعية السامية، وبجانب مكانته الاجتماعية المميزة كان الشريف الرضي واسع الذكاء، والبديهة، مُتمكناً من اللغة وفنونها منذ الصغر، فنظم الشعر وهو في التاسعة أو بعد العاشرة بقليل، فضلاً عن حفظه القرآن الكريم كاملاً في مدة يسيرة. ومن ثمّ تلقن الفقه، والنحو، والتفسير، والتاريخ، والنَّسب، من شيوخ عصره الكبار، وأُغرم بالأدب بدرجة خاصة.

تولّى نقابة الطالبيين، والنظر في أُمورهم، والمظالم، فضلاً عن إمارة الحج(*).

وترك الشريف الرضي في المكتبة العربية مصنفات مهمة ومتعددة في علوم القرآن، والأدب نثراً وشعراً، فضلاً عن كتاب (نهج البلاغة)، وديوان شعره الذي تضمن دلالات تُفصح عن ذاته، وعلاقاته، ورؤيته للكون، كما كشف ديوانه كثيراً من مظاهر الحياة العربية، وما تنطوي عليه من أفكار، وسلوكيات، ومفاهيم، وصلات، مُنسلة من الأنساق الثقافية التي يضمها الواقع العربي، وتشفّ عن مهيمنة تتجلى فيها الأعراف، والقيم، والرغبات، والممنوعات، والمتمنيات، التي تُعبر عن إطار يُحدد شخصية العرب التي تميزوا بها.

وقد كان التنوع الموضوعي الذي اشتمل عليه ديوانه يحيل على هذا الواقع، ومظاهره، كما يشف عن روح الشاعر، ويكشف آلامه، ومتمنياته، ووعيه وثقافته الكبيرة.

ومن خلال استقرائنا لشعر الشريف الرضي وجدنا حضوراً واسعاً لثيمة الظلام، وتجلياته، لذلك اخترنا دراستها؛ لأن هذه الثيمة لم تحظَ بدراسة نقدية وافية، تكشف اتجاهاتها، ومظاهرها، وأبعادها الفكرية والعاطفية، وما يحفّ بها، وما تستدعيه من هواجس، ورؤى، بتموضعها في العمل الشعري للشاعر، واخترنا النقد الموضوعي منهجاً للبحث؛ سعياً للكشف عن الأبعاد الموضوعية التي أراد الشاعر التعبير عنها باستلهامه للظلام وتجلياته، ومايجاوره، ومايستدعيه من مفاهيم، وما يضمه من آفاق، وما يصرح به من تجارب ومواقف.

وقد وجدنا مفردات الظلام وتجلياته أكثر بروزاً في غرض **المديح** في ديوان الشريف الرضي، وكان ثراء موضوع المديح في ديوانه، وتشعباته، واتصاله بعدد من القضايا المتعلقة

بالأنا، والآخر، وما تضمّه من مفاهيم، وسلوكيات، واعتبارات، اجتماعية، ونفسية، ودينية، وسياسية، وغيرها، من أهم صعوبات البحث، فضلاً عن اتساع قصائد المديح ذاتها في ديوانه، لذلك خصصنا بحث هذه الثيمة وتجلياتها في مديح والده حصراً، لما خص به هذا المديح من قوة العاطفة وصدقها، فضلاً عن ثرائه الفكري والبلاغي.

مدخل

المديح في شعر الشريف الرضي

شغل المديح مساحة كبيرة في ديوان الشريف الرضي، قاربت ثلث ما قاله من شعر، وللشريف الرضي منزلة خاصة بين شعراء المديح العرب؛ لما خُص به شعره، ولاسيما في المديح، من رصانة، وفصاحة، وجودة سبك، ومعان سامية تفوق بسموها على سابقه المتنبي، وحسبك ما للمتنبي من مكانة بين شعراء العرب المداحين، فـ"في مدائح المتنبي معانٍ ساقطة وألفاظ مبتذلة وتعابير معقدة، وفيها مبالغات بالغة، ولا سيما في وصف القوة، حيث يعتمد الشاعر إلى تشابيه شاذة، فاسدة الذوق، أو قليلة الاحتفال بحرمة الأشياء المقدسة"[١]، ومن ذلك خطابه للحسين بن إسحاق التنوخي مادحاً:

فما تَرزُقُ الأقدارُ مَن أنتَ حارِمٌ ولا تَحرِمُ الأقدارُ من أنتَ رازِقُ

ولا تَفتقُ الأيامُ ما أنتَ راتِقُ ولا ترتُقُ الأيامُ ما أنتَ فاتِقُ[٢]

وقد مدح الشريف الرضي من أُسرته: والده، وشقيقه، وخاله، ومدح من خلفاء بني العباس الخليفة العباسي الطائع لله، والخليفة القادر بالله، ومن ملوك بني بويه: مدح شرف الدولة، وبهاء الدولة، ومن الوزراء: مدح محمد بن الحسن بن صالح، والحسن بن حمد بن أبي الزمان، والصاحب بن عباد، وغيرهم، فضلاً عن مديحه لأصدقائه، وبعض شيوخه.

وأما الظلام فقد تضمن مديحه لهؤلاء جميعهم القول به أو بإحدى تجلياته أو مشتقاته، ومنها على سبيل المثال: الظُلمة، والمُظلم، والإظلام، فضلاً عن الفعل أَظلَمَ وتصريفاته، وأما

المديح فلم يمدح الشريف الرضي طلباً للكسب المادي؛ لأنه بحَسَبه ومكانته غني كل الغنى عن ذلك، وقد قالها:

فَهذا ثَنائي لا أُريدُ به الغِنَى، أبى المَجدُ لِي أنْ أجعَلَ المَدْحَ مَكسَبِي

ولكِن رجَاءً أن تكُونَ لِهِمّتِي طَرِيقَـاً تُـؤدِّيـنِي إلـى كُـلِّ مـطْلَـبِي(٣)

بل إن أكثر مدائحه قد ضمّت في فضاءاتها فخراً عالياً متعالياً، ولاسيما فيما نظمه للملوك، ومن ذلك ما ورد في خطابه للخليفة القادر بالله، بقوله:

عطفاً أميرَ المؤمنينَ فإنّنَا في دَوْحَةِ العَلْيَاءِ لا نَتَفَرَّقُ

ما بينَنا يومَ الفخارِ تفاوُتٌ أبداً كِلانا في المَعالِي مُعْرِقُ(٤)

لقد جاء المديح عند الشريف بوصفه دعوة واقعية صريحة للتمسك بالأخلاق الرفيعة والشجاعة والحق، كما تبدو في حقيقتها(٥)، وتعلقت قصيدة المدح عند الشاعر بإطارين يستشف الشاعر منهما دلالاته الشعرية وفضاءاتها، هما: أولاً الوجدان وما يكنّه للآخر الممدوح من مشاعر وإعجاب، كمدحه لخاله –على سبيل المثال– قال:

لولا وقارُكَ فِي نصْلٍ سَطوتَ بهِ، فاضَتْ مَضاربُه من خِفّة الطّرَبِ

وحُسنُ رأيُكَ في الأرماحِ يُنهِضُها إلى الطِّعانِ، ولولا ذاكَ لمْ تَثِبِ

كُنْ كيفَ شِئْتَ فإن المجدَ مُحتمِلٌ عنكَ المَغافِرَ في بَدءٍ وفي عقِبِ

مازالَ بِشْرُكَ في الأزمَانِ يُؤنِسُها، حتى أضَاءتْ سُروراً أوجُهُ الحِقَبِ (٦)

ثانيا: إطار فكره الواعي وما يضمّه من رؤى، تستبطن حقيقة الآخر، وتكشف في معرض المدح –الذي قيل درءاً لأذى– الظاهر ما فيه من عيوب، كقوله في مدح بهاء الدولة البويهي، مستعيراً لدغة الثعبان لتمثيله، وحسبك مايخفي هذا التمثيل من معان:

وما يُنجِي اللّديغَ بِه تداوٍ، وقدْ أمسى بداءٍ أيَّ داءِ[٧]

وفي قصيدة أُخرى يعضّد هذا التمثيل بالإحالة على الصِّل، قال:

أبى العِزُّ لبيتِ الصِّـ لِّ أنْ يُطرَقَ بالضبّ

وماذا آنَسَ الكُردُ بمن زلزلَ بالعُرْبِ[٨]

فلم يمدح الشريف إلاَّ عن حبّ، أو لمداراة شئ ما[٩]، أو لما يراه في ممدوحه من سمات كان يُعبِّر عنها باستخدام الرمز المُضمر في المدح أحياناً؛ إذ إن المتتبع لنص الشريف الرضي في المدح سيجد معاني مُختبئة، تتماس مع شخص الممدوح وما عُرف به من صفات.

وقد كان للشريف الرضي علاقات طيبة ومميزة مع خلفاء عصره وعِلية قومه سوَّغت مدحهم، للتعبير عن أُمور يراها ميزة بهم كالجود على سبيل المثال، وقد يمدح الشريف الرضي عرفاناً بالجميل، أو في معرض التهنئة بمناسبات الأعياد والمواليد وماشابهها. أما مديحه للبويهيين فيبدو أنه كان وسيلة لدرء أذاهم وبطشهم، خاصة وقد اعتقل عضد الدولة والدَه سنة ٣٦٩هـ –وكان الشريف آنذاك في العاشرة من العمر– وبقي في قيد الاعتقال سبع سنوات مع مصادرة جميع أملاكه[١٠]، وقد صرّح الشريف الرضي جهراً بتهذيبه لخواطره في مديح من سمَّاهم اللِّئام، قال:

أُهذِّبُ في مَدْحِ اللِّئام خَوَاطِري فأصدُقُ في حُسْنِ المَعانِي، وأكذِبُ

وما المَدْحُ إلاّ فِي النبيّ وآلِهِ يـُرامُ، وبعـضُ القـوْلِ مـا يُتَـجَنَّـبُ

وأوْلَى بمدحي من أعِزُّ بفخرِهِ، ولا يَشـكُرُ النّـعمَـاءَ إلاّ المُـهَـذَّبُ

أرى الشعرَ فيهِم باقياً، وكأنَّما تُحلِّـقُ بالأشعارِ عَنـقاءُ مُـغرِبُ[١١]

وكان الشريف الرضي يستهل أكثر قصائده في المديح بالفخر، والشكوى–وهاتان الثيمتان تنطويان على همّ روحيّ كبيرعاشه آل علي بن أبي طالب بالذات، ولاسيما المبرزون

منهم- وتشتمل قصيدة المدح لديه على موضوعات متعددة منها: الحكمة، والوصف، والغزل، والهجاء، وغيرها من الموضوعات، التي تضمّ في بنيتها رؤى قد تختلف أو تأتلف مع خلفيات المدح، على وفق جدلية معينة تتشكل في خطاب يرسله الشاعر ضمناً مع أبعاد المدح ومضامينه.

وقد حملت قصائد الشريف الرضي في المديح دلالات متعددة وصف بها الآخر الممدوح، منها على سبيل المثال: القوة، والشجاعة، والإقدام، والحميّة، والكرم، والعدل، والإيمان، وطِيب المنشأ ومجده، والمكانة السامية، والسماح، والإباء.

وتملّك شعر الشريف الرضي في المديح دلالات مبتكرة، عبر أُسلوبه اللغوي الرصين، وأخيلته، وصوره المتتابعة، ومايتولد عنها من قيم تضم دعوة لتهذيب النفس، والارتقاء بها، وإعلاء الأخلاق والمُثل الإنسانية السامية.

أما أصدق مدائح الشريف الرضي فكانت في والده، وقد وشّحها بمشاعر رقيقة وعبارات تفيض حباً وحناناً وإكباراً وإعجاباً بشخصيته الفذة، وقد عُرف والد الشريف الرضي بالهيبة، والشجاعة، والبأس، وعلوّ الهمّة، والسماحة، وجلالة القدر، وعظم المكانة لدى العامة، فضلاً عن الخاصة، بما فيهم خلفاء بني العباس وملوك البويهيين وقادتهم، وقيل بأنه كان شديد العصبة، يتلاعب بالدول، وهو أجلّ من وضع على رأسه الطيلسان وجرّ خلفه رمحاً، لُقب بـ: الطاهر، والأجلّ، وذي المناقب، والطاهر الأوحد. تولّى قضاء القضاة، وإمارة الحج، والمظالم، كما تولى نقابة الطالبيين خمس مرات متتالية، وتوفي وهو متقلدها سنة ٤٠٠هـ(١٢).

قال الشريف الرضي مفتخراً به ومادحاً له:

وَقالُوا: عجِيبٌ عُجْبُ مِثلي بنفسِهِ، وأينَ على الأيامِ مثلُ أبي أبُ(١٣)

لقد قدم الشاعر في هذا البيت رؤيته الجوهرية لأبيه التي جاءت في مدى الفخر مدحاً له، ليتمثل صورة السموّ الكبرى التي يستشعرها لقيمته مقارنة بالآخر- الآباء الآخرين- فوالده هو الذي يمتلك هذه السمة في الزمن المفتوح ضمناً عليهم جميعاً، "وحيث إن البطل الحقيقي

هنا هو الشاعر نفسه، فهذا الشاعر يتذاوت في الشخصية التي يسقط عليها تصوراته للأكملية، فالبطل المرسوم والشاعر الراسم هما واحد"[١٤]. وقد نظم الشريف الرضي أروع قصائده في المديح في ذلك الوالد الجليل، معبراً عما يجيش في صدره من معاني الود والتقدير له وحده بدون تكلف، قال:

إذا قلتُ فيكَ الشعر جوّد مادحٌ، وأكثرَ وصّـافٌ، وأعرقَ مُـطنِبُ

وغيرُك لا أطريه إلاّ تكلُّفا وغير جنيبي عند غيركَ مصحبُ[١٥]

الشاعر في هذا النص يُعرِّف بمشاعره المتلاحمة مع مدحه لوالده مقارنة بمدحه للآخر، وقد اتكأ على إيراد أفعال تستثير المتلقي في كشف مشاعره نحوه، بالقول بـ: إذا قلتُ: جوّد، وأكثر، وأعرق، وهي من العلامات الأُسلوبية في تقديمه لشخصية الآخر، التي تشمل هنا القول بـ(المادح، والوصّاف، والمُطنب)، وتظهر هذه السمات مع الممدوح الآخر– الذي لا يطريه إلاّ تكلُّفا– وهو النقيض في مدّ المشاعر، باستخدامه النفي والاستثناء بقوله: لا أطريه/ إلاَّ تكلُّفا، إذ يروم بتقديم شخصية الآخر في مدى المدح تحديداً، تعريف المتلقي بمشاعر الأنا المفاضة مع هذا الغرض في النص، ومعانيه المترادفة مع هاجسه الكامن؛ إذ يشكل هذا الاستدعاء بعداً مرجعياً لدواخله وما يعتمل فيها.

وشملت قصائد مدح والده موضوعات متعددة في معرض الإشادة بصفاته وإعلائها، منها: الفخر –كما مرّ آنفاً–، والغزل، والهجاء، والوصف، والشكوى، وذمّ الزمان، والحكمة، والوعظ، والعتاب. إذ يسعى الشاعر بتقديم رؤيته لإنتاج بنية تلائم مكانة الممدوح، وموقف المادح، لتتميز القصيدة في الإخبار عن السمات القيمية والمادية للممدوح، فضلاً عن السمات الشعورية للمادح، وقد حشد سمات الممدوح حشداً لإثبات المكانة العالية التي يمتلكها، فجعلها تتحرك في ضمن مساحات موضوعاتية تلائم مسار المدّ الشعوري الذي يرافق نظم قصيدته، بتقديم شخصية الممدوح مع استحضار آخر بمدى آخر، والآخر قد يكون عبر هذه البنية هو النقيض والمختلف، أو المؤتلف، بحسب السمات التي يمتلكها وتنتمي إليه، فضلاً عن رؤية الشاعر وإحساسه به، كما بينا آنفاً.

ومن خلال استقرائنا لمدائح الشريف الرضي لوالده لاحظنا ورود مفردة الظلام ومشتقاتها في معرض المديح، مع الإشارة **لبطولته حصرا**، وهذه إشارة من الشاعر يبين فيها ما يتوصف به والده بالتعالق مع الظلام ومايستثيره من أهوال للإحالة على تفرده واختلافه وتميزه سواء أكان الظلام حقيقة أم مجازاً، بالتزامن مع معاني: العُلى في بيت بني هاشم، والسؤدد، والندى، والجود، والسماح، والإباء، وقوة الرأي وصوابه، وتملُّك الفخار. وقد مدح الشريف الرضي والده بأكثر من عشرين قصيدة، فكان لوالده النصيب الأكبر من مدائحه عامة.

والبطولة هي فضاء لقيم إنسانية كبرى، تسمو، وتضمّ استجابة فاعلة لاحتياجات الإنسان الأصيلة، وبوصفها قيماً فهي ليس لها جوهر إلاّ بالفعل الحقيقي، الواقع بأشكاله المتعددة في الزمان، والمكان، إذ تنتقل به –وبه حصراً– من التجريد إلى الحسّ التطبيقي المثالي، وبها ينتقل الفرد من الهامش إلى الفعل البطولي، الذي يؤثر ويتأثر بقانون الطبيعة وحركة التاريخ، والبطولة قيمة لها شروطها، مثل: الموهبة، والقوة الجسدية، والفكر المميز، والأخلاق العالية، والوعي بالآخر وحاجاته المشروعة، ليستجيب لها بفعل عميق الأثر، وبشغف بقيمتها العليا للمجتمع الإنساني للتعبير عنها بصورة مثلى(١٦).

وقد كانت معاني البطولة، ومظاهر الشجاعة المتلاحمة مع ذكره للظلام أو تجلياته في شعر الشريف الرضي المادح لأبيه، تعبر عن نموذج يضمّ قيماً يريد لها البروز، ليحدد بها أروع سماته التي يراه جديراً بحملها، ووراثتها عن أجداده الكرام، وكثيراً ما كان الشريف يفخر بأجداده الأفذاذ ويرى أنه –ووالده– وارث المجد عنهم.

وقد كان التشديد في استحضار قيم البطولة منقطعة النظير ثيمة المدح المهيمنة في قصائد الشريف لوالده بعامة؛ لإبرازه قيمة وفعلاً يتكرر، فضلاً عن التعالق الضدي بين **الظلام** –الذي يمثل **الأشياء** التي يمحوها **الممدوح** بشجاعته وإقدامه– **والضوء** الذي يمثله **الممدوح** ببطولته وبشخصه، ومنه قوله مسترجعاً مدائحه لما فيه من العلاء، وكأنها تُنسج من خلق الغمام المنهمر بالمطر والخير الكثير، مقارنة بحاله عند غياب أبيه في السجن، وكأن الأرض قد تدرّعت عليه **بمدارع الإظلام**، وهنا ورد الإظلام كناية عن غياب نور

ممدوحه من التواجد المكاني الذي يضمهما معاً، وقد كانت هذه القصيدة هي أول قصيدة مدح لأبيه بعد خروجه من السجن، وقد أنفذها إليه قبل وصوله لبغداد، قال:

كمْ مدحةٍ لِي في عُلاكَ، كأنّما تفترّ عَن خُلُق الغَمام الهامِي

أكدتْ عليّ الأرضُ من أطرافِها، وتـدرَّعتْ بـمدارعِ الإظلامِ[١٧]

وسنبين في الآتي معاني مديح الشريف الرضي لوالده، وميزات هذا المديح، بتضمينه لثيمة الظلام وتجلياته ومايحف به من مظاهر:

معاني مديح الشريف الرضي لوالده المتعالقة مع ثيمة الظلام وتجلياته

يستثمر الشريف الرضي في مديح والده ثيمة الظلام وتجلياته، للتعبير عن شخصية مميزة يتبنّى بالتعريف بها ما يلائم سيرته في الأحداث التي مرّ بها، وتوصيف سماته القيمية الأخلاقية، والمادية، التي عرف بها، والتي يسمو من يتحلى بها في منظومة الأنساق الثقافية عند العرب، عبر القول بـ الآتي:

١. التفرد

لم يكن والد الشريف الرضي بطلاً فحسب في قصائده، بل لقد تفرد بالبطولة وخُص بها، في النص الآتي هو يستثمر الظلام للإشارة لذلك التفرد فمن غيره يجلو ظلام الحرب إذا وقعت، ومن غيره يقرع هام القود فيها، ومن غيره للجياد تغدو لطعن شجعان العدى، قال:

فَمـَنْ غـيرُهُ للِيَعْمَلاتِ يُقيمُـها، إذا وقـعتْ مَـثْنِـيّةً رُكُبـاتُـها

ومن لعَجاجِ الحرب يجلو ظلامَهُ، إذا خَفَقَتْ في نَقْعِـها عَذَباتُـها

ومن للمعالي الـقُود يقـرَعُ هـامَها، إذا نفتْ الإقدامَ عنها صفاتُها

ومـن لأضاميمِ الـجيـاد، غـدوُّها لِطَعْن حَماليقِ العدى وبَيَاتُها[١٨]

لقد كانت البطولة والتميز بها في ساحات الحرب وظلامها، تتجلّى مع صفات أفردها الشريف الرضي عبر صيغة الاستفهام الإنكاري، الذي ينم ضمناً عن نفي تحلي غير ممدوحه بها، وينم عن دور تجلت صفاته به وبفعله في الحرب وأهوالها، ومواقفها الشديدة

ولاسيما عند وقوعها في الظلام، وفي هذا المدى توجه الشاعر لرصد تفرد ممدوحه بالبطولة من خلال سمات متلاحمة مع ذكر إجلائه للظلام في غمرات الحرب بالقول:(مَن لليعملات: يقيمها، مَن لعجاج الحرب: **يجلو ظلامه**، مَن للمعالي القود: يقرع، مَن لأضاميم الجياد:يقود)، ليرفد شخصية الممدوح ببعدين مهمين، الأول: يؤكد فيه المرجعية التي ينال بها سمة البطل المميز وأهميته الاجتماعية في الحدث وهو الحرب ومافيها من أهوال وظلام، وهي مدلول مرجعي له، الثاني: مجريات الحدث، وما يضمّه من فعله المتفرد فيه، ولاسيما خوضه لشراسة المعركة في الظلام.

٢. الاختلاف:

يقول الشريف الرضي:

وعُلىً لأبلَجَ من ذؤابةِ هاشمٍ، يُثنى عليه السؤددُ المعقودُ

قد فاتَ مطلوباً وأدركَ طالباً، ومُقارعوهُ على الأُمور قُعودُ

خسأتْ عيونُهُمُ، وقد طمحتْ له دَدٌ عِراضٌ في العلى وعديدُ

ما صالَ إلاّ انجابَ غيٌّ مُظْلِمٌ، واندقّ من عَمَدِ الضّلال عمودُ

يأسو ويجرَحُ، فالجراحةُ عزمَةٌ تُصمى، وآسيها الندى والجودُ(١٩)

في هذا النص يذكر الشريف الرضي **الغي المظلم** الذي يزيله ممدوحه متميزاً في ساحات الوغى، فإضافة صفة الظلام للغي ترفده بمعنى مكثف يدلل على قوة هائلة للبطل باقتحامه، متلاحمة مع صفات عالية لايدركها غيره، مقارنة بالآخر المناقض: (مقارعوه: قعود/ خسأت: عيونهم) إذ إن صورة المشهد ومافيه من شدّة وظلام لاتكتمل في مستواها الإبلاغي في هذا الموقف، إلاّ عبر الاختلاف، الذي يضمّ الحالة القيمية التي يراد كشفها، عبر رصد التماثل بين فعل الممدوح وسمات البطل النموذج، واستجابة الآخر المناقض تماماً، وبهذا التمييز تتضح درجة الاتساع والهوة مابينهما، وتتجلى خصوصية البطل المتفرد والمختلف المشار له بضمير الهو، وصفات الآخر: الجماعة، المشار لهم بضمير الهُم في النص.

٣. التميز

كما استثمر الشريف الرضي الظلام بمعناه المجازي في مدى توصيف تميز بطولة ممدوحه الذي يصلى نشوان بأطراف المواضي في نار الحرب الطائشة السعير، ويسرع بالطعن بالعوالي فيها، فيرد الشمس بعد حجبها- هنا ظلام مجازي- بأجنحة النسور كناية عن قوة العدو وبطشه، ويؤدب العدو المذعور في ظلماء-مجاز- قابضة إليه كناية عن مصيره المحتوم بالفناء، فهذه السمات المتجلية مع الظلام وما يضمه في معناه الباطني من أهوال المعركة وقسوتها علامات ذاتية يتميز بها الممدوح عن غيره، ويعرف بها، وهذا المدى ومافيه من ظلام يمنحه موقعاً عالياً في البطولة، والسمو بمعطياتها، للتأثير في الحدث- ساحة الحرب- الذي يشكل النسق الذي تتجلى ملامح البطل فيه ابتداءً، قال:

سماحٌ في جوانبِهِ إباءٌ، كحُسن الماء في السيف الشهيرِ
فتىً يصلى بأطراف المواضي، ونارُ الحرب طائشةُ السعيرِ
ويمشُقُ بالعوالي في الهوادي، وطُرْسُ اليوم مُختلِطُ السطورِ
يردُّ الشمس مطروفاً سناها، وقد حُجِبتْ بأجنحة النسورِ
هُمامٌ جرَّ أرسانَ المعالي إليه، وطاسَ أطنابَ الأمورِ
يُشاورُ، وهو أعلمُ بالقضايا، فيسبُقُ رأيُهُ قولَ المشيرِ
ويُفرِغُ صائبات الرأي فيها، كإفراغ النّبال من الجفيرِ
رمى بالنار في ثغر الدياجي، وأدّبَ شيمة الكلب العَقورِ
لمزؤودٍ تقاذفُهُ المطايا، ويُسندُهُ إلى ظهرٍ حسيرِ
على ظلماءَ قابضةٍ إليهِ بلحظ المُجْتلي ويد المُشير[٢٠]

فهذا الوصف المتتالي تباعاً مع فضاء الظلام المجازي-كما بينا آنفاً- والحقيقي بقوله على ظلماء قابضة إليه، يؤسس تضخماً للدلالة، لإبراز وتمييز سمة البطل في ممدوحه، بالتركيز عليها، فضلاً عن ذكر سماته الأخرى التي ضمّها النص كالسماح، والعلم بالأُمور، وصواب الرأي.

٤. الإقدام والشراسة والقوة

استثمر الشريف الرضي الظلام ببعده الزمني في مدح شجاعة والده وبيان إقدامه وشراسة بطولته وقوته، مع ذكره لمدى الحركة ومافيها من معطيات في خوضه الظلام– الليل– بسنابك الخيل الشديدة التي تدوس مواقد النار ومعه الصوارم التي مازال يضرب بها هامات الأعداء حتى الصباح، ليتركهم صرعى كأنهم صعقوا لهول المنزلة التي وقعت في الليل الحالك بدءاً، وقد كان تلاحم القول بخوض الظلام مع الخيل الشدائد دالة على امتلاك القوة والسرعة والبأس، وقد كان إكرام الخيل والاهتمام بها في منظومة الأنساق العربية إكراماً لنفس العربي وزهوه وفخره[٢١]، فهو معها ينال المجد، والمآثر، ويحمي على صهوتها الذمار، ويكفّ الأذى، وقد قيل بأن الخيل معقود بنواصيها الخير، ولذلك كثر ذكرها في شعر المديح والحماسة، وعند ذكر الشجاعة والشجعان، وهو من الكثرة بحيث يصعب إحصاءه[٢٢]، قال الشريف الرضي:

خضتَ الظلامَ إليهمُ بسنابكٍ خاضتْ قلوبَ مواقد النيرانِ

وفرَيتَ وفرَةَ ليلِهم بصوارمٍ وصلتْ عُرى الإصباح باللمعانِ

حسرَ الدجى فنصبتَ أعناقَ العدا قُبَلاً لنيلِ رواكع الشريانِ

فتركتَهمْ صرعى بكلّ مفازةٍ، وكأنما صُعقوا على الأذقانِ[٢٣]

محور الحدث هو خوض معركة في الظلام، وهذا يحيل على شجاعة عالية ترتبط بشخصية المخاطب: وهو الممدوح في القصيدة: الأنت، وما يؤول إليه مصير الآخرين: الهُم، بعد اشتباكه بهم بالقول: (خضت الظلام: فريت وفرة ليلهم، نصبت أعناق العدا. ثم الانتهاء إلى السكون في المصير: تركتهم صرعى، صُعقوا)، هذه الحركة المتتابعة تنضمّ إلى مدى أكبر هو توصيف بطولة الأنت ومافيها من معطيات، تنبثق من تلاحم الفعل الكلي للأحداث في بنية النص النامية من ظلام الليل إلى عُرى الصباح–وهذا بعد جوهري على الإقدام والشراسة والقوة– عبر استمرار الحدث المتولِّد في الزمان وفعل الشخصيات المشاركة فيه، والأثر المفاض منه.

وقال مستثمرا البعد الزمني لوقوع الظلام في مدى مدح والده مع تمييز تلاحم الحركة والصوت في هول المعركة وذكره لكتائبه وجياده، وقوتها، وملامحها المميزة في الوغى، قال:

ورَجــراجـةٍ تلتـفّ أيدي جيــادها، وأيّ ضَجاجٍ من وغى وصهيلِ

وجُردٍ تمـطّى فـي الأعنـّةِ شــزَّبٍ، كـأن حـواميــها رقـابُ وُعـولِ

ضوامر مـن طـول الوجيـف كأنها ذوائـب نـبتٍ طامـنتْ لـذبـولِ

تدافعنَ في شعواءَ لا الطودُ عندها بعالٍ، ولا جـلدُ الربى بحَمــُولِ

رعيــنَ بهـا شُـول الرمــاح كأنها غداةَ الوغى فـي بارضٍ وجلـيلِ

وكم <u>خاضَ تأمـور الظـلامِ</u> بفتيةٍ، يرونَ وُعورَ الليل مثل سهولِ

تـنوشُ أنابـيــبُ الرمــاحِ وراءَهُمْ كأُســدٍ تُــماشيها جوانــبُ غيلِ

سـيـوفُ إبـاءٍ فــي أكــفٍّ أبيّــةٍ، وكلّ طـويلٍ في يمـين طـويلِ[٢٤]

لقد اشتمل وصف المعركة في هذا النص على إظهار مدى الظلام بالقول: **وكم <u>خاضَ تأمور الظلامِ بفتيةٍ</u>** متلاحما مع الحركة والصوت في صلب الحدث المحال على قوة الممدوح وجنوده، عبر ذكره لـ: رجراجة، ضجاج، صهيل، الوجيف، تدافعن، شعواء. مع إظهار الاتساع المكاني الذي ضمّ المعركة، وهو مدى مركزي في الشمول الذي يحتوى قوتهم المفرطة، كناية عن شراسة الحرب، وكثرة عديد جنودها، وقد مثّل الشاعر عبر رسم جزيئات الحدث ومايلفه من أهوال وظلام لشجاعة الممدوح وجنوده والتعريف به وبهم، بتبنى تهويل القدرة القتالية في المدى الأصعب الذي ثبت تمركزه في الظلام وحسبك مافي الظلام من صعاب ومخاوف، وهذا أيضا بعد جوهري على الإقدام والشراسة والقوة، فقد كانت ضوامر الخيل ذوائباً تتدافع في شعواء ضرباتهم النافذة، وتراشق الرماح والسيوف. وقد ضمّ الوصف: الإخبار عما قاموا به من أفعال البطولة في الليل، فضلاً عن التعبير عن الانفعال الذي رافق تلك الملحمة.

٥. المجد:

تجلى التضاد في شعر الشريف الرضي لتوصيف بطولة ممدوحه ومجده عبر تلاحم النور مع الظلام، بإحالة النور إلى شخص الممدوح خاصة، فالظلام لو خاضه هذا الأب ولشدة نوره فكأنه يتلثم بالقمر، أما المجد فهو أعظم مقتنى يبتغيه في ساحة الحرب محيلاً لها بالسيف كناية، قال:

ولولا الحُسينُ عَصَبتُ الرجاء، وأغضـــيتُ عن برقِه النائرِ

وأشمـتُّ بالـقرب أيـدي النـوى، وخـــاطرتُ بالطـمع العـائرِ

إذا هـمَّ باعَ الطُّـلى بالظّـُبى، وكـــفَّ المـُعـاقِرَ بالثـــائِرِ

كـأنَّ الظـــلامَ إذا خـــاضـــَهُ تـــلثَّـمَ بالقـــمـر الســـافرِ

رأى المـــجدَ أعظـــَمَ ما يُقتنى، إذا السيفُ عقّ يد الشاهرِ(٢٥)

توخى النص تمييز الممدوح وإبراز مايتحلى به من المجد؛ للتعريف به عبر محمول نفسي موضوعي تبدى فيه التشبيه بين الظلام والقمر الملثم، فتكفل بصياغته بالإحالة على ما يستشعره تجاهه، باستثمار الأفعال: عصبتُ، وأغضيتُ، وأشمتُّ، وخاطرتُ. وهو تمييز يتكئ على العلاقة التي تربطه به مباشرة، بوصفه شاهداً على ما يتوخى تمييزه، فحرص على وصف قيمته باستعمال ضمير الأنا، في سياق انفعالي مكتنز بالدلالة، أتبعه الإشارة على عظمة همته عبر السلب بالقول: إذا هم: باع الطلى، وكفّ المعاقر، فذلك الوصف يعادل موضوعياً قيمة البطل المثال، والتعريف به في المستوى الإبلاغي الذي استعمل فيه أُسلوب التشبيه بالقول: كأن الظلام إذا خاضه: تلثَّم بالقمر، وقد توخّى إظهار التضاد والسلب بين التلثُّم وما يفيض من القمر، لاستفزاز خيال المخاطب، وإثارة ذهنه، وانفعاله، في مدى التعريف بمجد ممدوحه بالتضاد بين النور والظلمة.

كما يستلهم الشريف الرضي التضاد المعنوي بين الظلام والضوء في مدى يبرز مجد والده، بالقول:

ولـيلٍ بـــاتَ يـســـهـرُهُ، كـأنّ المـجدَ سـامرُهُ

يبُثُّ سَـــوامَ لحـــظتِـهِ، وأنجـمُـــهُ أزاهـــرُهُ

إذا ما افتـرَّ خـــالَ الليـ ـلُ أن الفجرَ باهرُهُ

وإنْ أســـرى يـــودّ الأفـ ـقُ أنّ البدرَ ضامِرُهُ

وتغشى في الظلام بضوْ ءِ غُرَّتِـــهِ عـــذافِرُهُ

لقـد ملَـــكَ الفـــخـارَ وبا تَ ينهـــاهُ ويـــأمرُهُ

جـــــوادٌ أنـــتَ راكبُـــــهُ، وسيفٌ أنتَ شاهرُهُ[٢٦]

يشير وصف الممدوح هنا إلى مدى من الامتداد في الدلالة، لإبراز بطولته ومجده في أكثر من جانب، وهذا الامتداد يتحقق في النص عبر السمات التي تنمو تباعاً لتحقيق رسالة النص مستمداً من التضاد بين الظلام والضوء ركيزة يستند عليها، فالليل–ظلام– الذي يسهره: كأن المجد سامره، وأنجمه–نور– أزاهره، وإن أسرى: يودّ الأفق أن البدر–ضوء– ضامره، – وبضوء –ضوء–غرّته: تغشى في الظلام–ظلام– عذافره، لقد ملك الفخار–كناية عن النور–: وبات ناهيه وآمره/ وفي صيغة المخاطب، الفخار: جواد أنت(الممدوح) راكبه، وسيف أنت(الممدوح) شاهره.

فهذا النص والنصوص الآنفة ضمّت مع ذكر الظلام أو أحد تجلياته التعدد في الإحالات التوصيفية بالأفعال، والآثار، ومظاهرها، وهي في تعبيرها عن ملامح الممدوح – والده– تضمّ مستوى إبلاغي تختلف مخرجاته بتعدد النصوص والإحالات، وكلها تنضمّ إلى ثيمة أساس هي وصف بطولته، ومخرجاتها.

خاتمة

كان لثيمة الظلام، وتجلياتها، ومظاهرها، وما تستدعيه من هواجس، ورؤى وأفكار، حضور بارز في ديوان الشريف الرضي، وأكثر بروزاً في غرض المديح، ومن خلال استقرائنا لمدائح الشريف الرضي لوالده، لاحظنا ورود مفردة الظلام ومشتقاتها في معرض مديحه، مع الإشارة لبطولته حصراً، وهذه إشارة من الشاعر يبين فيها ما يتوصف به والده بالتعالق مع الظلام ومايستثيره من أهوال للإحالة على تفرده واختلافه وتميزه سواء أكان الظلام حقيقة أم مجازاً، بالتزامن مع معاني: العُلى في بيت بني هاشم، والسؤدد، والندى، والجود، والسماح، والإباء، وقوة الرأي وصوابه، وتملُّك الفخار.

وكان ذكر البطولة، ومظاهرها، في شعر الشريف الرضي المادح لأبيه بالتزامن مع ذكر الظلام وتجلياته، يُعبّر عن نموذج يضمّ قيماً يريد لها البروز؛ ليُحدد بها أروع سماته التي يراه جديراً بحملها، ووراثتها عن أجداده الكرام قيمة وفعلاً يتكرر، بالقول بالتفرد، والاختلاف، والتميز، والإقدام والشراسة والقوة، والمجد، فضلاً عن التعالق الضدّي بين الظلام –الذي يُمثل الأشياء التي يمحوها الممدوح بشجاعته – والضوء الذي يُمثله الممدوح ببطولته وبشخصه.

الهوامش

(*) ينظر في ترجمته على سبيل المثال لا الحصر: وفيات الأعيان، بن خلكان، ٤٤/٤. عمدة الطالب، أحمد بن علي الحسني، ٢٣٦. شذرات الذهب، ابن العماد الحنبلي، ١٨٣/٣. أعيان الشيعة، محسن الأمين، ٢١٦/٩ .

(١) تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري،٦٤١ .

(٢) ديوانه، ضبطه وعلّق عليه: الشربيني شريدة،٨٧، ٨٨. ومثله:٢٤، ٣٨، ٥٢، ٥٣، ٦٧، وغيرها كثير.

(٣)ديوانه، ٢٠١/١.

(٤)نفسه،٤٢/٢.

(٥)ينظر: بناء القصيدة عند الشريف الرضي، د.عناد غزوان، ٣٢.

(٦)الديوان، ٩٨/١. غفر الأمر: أصلحه.

(٧) نفسه، ١٤/١.

(٨) نفسه، ١/ ٥٤. الصلّ: حية عظيمة شرسة وبعضها صغير تثب من جحرها فتسحق ضحيتها.

(٩) ينظر: عبقرية الشريف الرضي، زكي مبارك، ٤٧.

(١٠) ينظر: أعيان الشيعة، ٢١٦/٩.

(١١) ديوانه، ١١٢/١.

(١٢) ينظر: المنتظم، ابن الجوزي، ٧١/١٥-٧٢. تاريخ الإسلام، الذهبي ٢٢٩/٢٧. الوافي بالوفيات، الصفدي، ٤٩/١٣. تاريخ الخلفاء، جلال الدين السيوطي، ٤٤٥. عمدة الطالب ٢٠٣.

(١٣)الديوان،١١٢/١.

(١٤) قطاع البطولة والنرجسية في الذات العربية، علي زيعور، ٤٥.

(١٥)الديوان، ٨٢/١، ٨٣ . الجنيب: الطائع المنقاد، والغريب.

(١٦) ينظر: البطولة في الشعر العربي قبل الإسلام، د. مؤيد اليوزبكي، ٣٧.

(١٧)الديوان، ٢/ ٣٦٧. أكدت: أجدبت.

(١٨)نفسه،٢١٤/١. نقع عدوه: قتله. أضاميم: الإضمامة كل ماضمّ بعضه إلى بعض. حماليق: حملاق العين باطن أجفان العين. بيات: فجأة في جوف الليل.

(١٩)الديوان، ٣١٠/١، ٣١١. خسأت: كلت. العراض: الكثيرة.

(٢٠)الديوان، ٤٤٥/١. يمشق: يسرع بالطعن. طرس: طرس الكتاب كتبه. طاس: وطئ. مزؤود: تزود بكل ماهو ضروري.

(٢١) ينظر: وصف الخيل في الشعر الجاهلي، د. كامل سلامة الدقس، ٤٧.

(٢٢) ينظر على سبيل المثال: الخيل لأبي عبيدة، ١١، ديوان امرئ القيس، ٦٧، الأصمعيات، أبو سعيد عبدالملك بن قريب، ١٩١.

(٢٣)الديوان، ٢/ ٥١٤. ضربه على أم فروته: على هامته.

(٢٤)نفسه، ٢/ ١٥٤. البارض: أول ماتخرج الأرض من النبات. الجليل: ضرب من النبات. تامور الظلام: قلبه.

(٢٥) نفسه، ٤٣٣/١.

(٢٦) نفسه، ١/ ٤٥٧. العذافر: الأُسود، الأشداء من الإبل.

المصادر

١. الأصمعيات، أبو سعيد عبدالملك بن قريب، تحقيق، محمد شاكر، عبدالسلام محمد هارون، دار المعارف، مصر، ط٤، ١٩٧٦.
٢. أعيان الشيعة، محسن الأمين، تحقيق: حسن الأمين، دار التعارف، بيروت، لبنان، ١٩٨٣.
٣. البطولة في الشعر العربي قبل الإسلام، د. مؤيد اليوزبكي، دار الشؤون الثقافية العامة، ، العراق، بغداد، ط١، ٢٠٠٨ .
٤. بناء القصيدة في شعر الشريف الرضي، د. عناد غزوان، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، بغداد، ط١، ٢٠٠٨ .
٥. تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري، المكتبة البولسية، بيروت، ١٩٨٧م.
٦. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي الدمشقي، تحقيق: عمر عبد السلام، ط١، بيروت، ١٩٨٧م .
٧. تاريخ الخلفاء، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق: لجنة من الأُدباء، مطابع معتوق أخوان، بيروت، (د.ت).
٨. الخيل، أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، ١٣٥٨هـ.
٩. ديوان امرئ القيس، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ط٣، ١٩٦٩.
١٠. ديوان الشريف الرضي، صححه وقدم له: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، ط٣، ٢٠١٢ .
١١. ديوان المتنبي، أبو الطيب أحمد بن حسين الكوفي، ضبطه وعلق عليه: الشربيني شريدة، دار الحديث، القاهرة، ٢٠١٤م.
١٢. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن العماد شهاب الدين أبي الفلاح عبدالحي بن أحمد بن محمد العسكري الحنبلي الدمشقي، تحقيق: عبدالقادر الأرناؤوط، محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط١، ١٩٨٨.
١٣. شرح ديوان أبي تمام، قدم له ووضع هوامشه وفهارسه: راجي الأسمر، الجزء الأول دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان،٢٠٠٧م.
١٤. عبقرية الشريف الرضي، زكي مبارك، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر.
١٥. عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب، السيد أحمد بن علي الداودي الحسني، تحقيق: نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٣.
١٦. قطاع البطولة والنرجسية في الذات العربية، علي زيعور، دار النهضة، بيروت، ١٩٨٢.
١٧. المنتظم في تاريخ الأُمم والملوك، عبد الرحمن بن علي بن محمد ابن الجوزي، ط١، بيروت، ١٩٩٢م.
١٨. الوافي بالوفيات، خليل بن أيبك بن عبد الله الشافعي الصفدي، تحقيق: أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ٢٠٠٠ م.
١٩. وصف الخيل في الشعر الجاهلي، د. كامل سلامة الدقس، دار الكتب الثقافية، الكويت، ١٩٧٥.
٢٠. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٢ .